خمسة أعوام في عذاب

عن الانكليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

ليس فى وسع إنسان مهما يكن شعوره بالفضل وبالترفع أن يفاخر بأنه لا يعبأ بالمغريات وبدوافع الشر أو بأنه يحتقرها . فالانسان لا يعرف كم تتغير نفسه تحت أحكام المؤثرات

وإنى لأروى على سبيل الاستشهاد على صدق هذه النظرية القضية الآتية التى سمعتها من أحد رجال البوليس السرى فى لوندرا

ماتت زوجة تاجر غنى لم يكن له إلا ولد واحد فتزوج من أرملة فى منتصف العمر . وكان ابنه شاباً فلم يرض عن هذه الزوجة . وكان يشتغل فى غير المدينة التى فيها أبوه فامتنع عن مراسلته بعد هذا الزواج . ولكن الأب كان راضياً بهذا الثمن وهو غضب ابنه فى مقابل تلذذه هو واستمتاعه مدة العام الذى بدأ بالزواج وانتهى بوفاته

ولأسباب لم تظهر قط كان الجزء الأخير من هذا العام كله ريبة وسوء ظن ودسائس في هذا البيت، لأن الخدم الثلاث كن يرتبن فى مقاصد الزوجة . وكانت أقدمهن وقد قضت فى خدمة المنزل بضعة أعوام تعد نفسها فى موضع الجاسوس على كل أعمال الزوجة . وقد كانت تنصت فسمعت زوجها يتوعدها عدة مرات بأن يغير الوصية ويحذف منها اسمها بتاتاً . فكانت تجيبه بأنها تجد الفقر أخف عبئاً من معاشرته على وفرة غناه . وكانت تلك الخادم تستدعى زميلتيها ليسمع ثلاثتهن مثل هذا الوعيد . وقد فهمن جميعاً علة الخلاف بين الزوجين فلما مات الرجل انتظرن أن تكشف الوصية لهن عن جلية أمر الخلاف . وقد كانت دهشتهن عظيمة عند ما جاء المحقق وتبين أن الوصية تحرم ابنه من الميراث وتعطي الزوجة ألفى جنيه فى كل عام وهى كل إيراده طول حياتها

وكان من الطبيعى أن تشعر الزوجة بالراحة والاطمئنان عند ما صارت مالكة لهذا الإيراد . وزالت الحزازة التى كانت تشعر بها أيام حياته. وبعد يومين من الوفاة جلست أمام مكتبها تكتب الردود على التعازى . وقد فرغت سريعاً من هذا الواجب ثم أخذت تقلب أوراق زوجها وهى لاتزال مبتسمة. ولكنها لم تكد تقرأ اثنى عشر سطراً حتى قطبت وعرتها رعشة، لأن الذي كانت تقرؤه إنما هو النص الأخير لوصية زوجها ؛ وهو يحرمها كل شيء ويهب تركته كلها لابنه . وكان تاريخ هذا النص قبل أسبوع واحد من الوفاة ، وعلى الوصية توقيعات شهود من الأحياء . فجلست تفكر فيما سيؤول إليه أمرها لأن البقية الباقية من ذلك العمر ستكون حياة فقر مدقع . ولذلك كان الاغراء الذى تجد نفسها تحت تأثيره قوياً جداً ، فهو ليس بين الشرف وبين انعدامه ، ولكن بين الغنى وبين الفقر . وكان عمرها إذ ذاك خمسين عاماً وهي لا تستطيع الكسب بوجه من الوجوه . ورأت أنه إذا لم يكن أحد ليذيع أمر هذه الوصية فلماذا لا تلزم الصمت ؟

وحملت الوصية فى يدها ومشت إلى الموقد ولكنها وجدته خالياً . وكانت من قبل ذاهلة عن ذلك وعن

أن الليل كان قد انتصف . وكادت تمزق الوصية ولكن الخادم فى هذه اللحظة دخلت ووقفت واجمة فسألتها : « ماذا تريدين ؟ »

ابتسمت الخادم ولم تجبها فقالت : « ما الذي تعنين ؟ »

قالت الخادم : « أراك ياسيدتى الآن منزعجة كأنك قد رأيت جنيًّا »

فحاولت المرأة أن تضحك ولكنها لم تستطع . وقبل أن تتحرك أية حركة كانت الخادم قد اختطفت من يدها الورقة التى ستتركها فى فقر مدقع فصرخت تلك صرخة يأس ، وحاولت أن تسترد الوصية

وعلى الرغم من التفاوت فى السن فان الخادم كانت أقوى المرأتين فاستطاعت التغلب على سيدتها . وتلت الوصية فى هدأة ثم قالت بعد الفراغ من ذلك : « لقد فهمت الآن »

قالت الأرملة : « لقد وجدت هذه الورقة منذ دقيقة فقط وأردت أن ... » فقالت الخادم مقاطعة : « أردت أن تحرقيها لو كان فى الموقد نار »

ثم مضت فترة صمت قالت بعدها الخادم : من حسن حظك أننى أكره المستر وليم ابن سيدى المرحوم فاذا سلكت مسلكاً حكيماً فانه لن يعلم أحد بأمر هذه الوصية »

سمعت المرأة هذه الكلمات فأثلجت صدرها لأنها كانت شديدة الخوف من الفقر ، فاستدعت الخادم وأجلستها بجانبها وعرضت عليها اقتسام الثروة بينهما وأن تدفع لها ألف جنيه مقدماً .

فلما تم الاتفاق على ذلك قالت الأرملة : «والوصية؟ هل تمزقينها؟» فقالت الخادم: « كلا بل ستبقى معى إلى الأبد »

ورأت الأرملة أن خادمتها لا تقبل المناقشة فى الأمر فأذعنت . ومن ذلك اليوم أصبحت الخادم هى السيدة الحقيقية فى المنزل ، فبدأت بطرد سائر الخدم واختارت آخرين . وكان ثانى عمل أتته أن أحضرت ابنها إلى المنزل وأطلقت عليه لقب السكرتير لتلك الأرملة فكان يلازمها فى الصباح وفى المساء

* * *

صارت الحياة مؤلمة فى نظر السيدة لأنها أصبحت تشعر بعد إخفاء الوصية بأنها ارتكبت جريمة منكرة وبأنها باتفاقها مع الخادم قد وضعت نفسها فى مركز ذليل . ولكنها احتملت حالتها خمسة أعوام فى صمت؛ وفى بدء العام السادس ذهب الخدم ليقدموا الشاى إلى كبيرتهم التى يعرفون أنها السيدة الحقيقية فعادوا يصرخون ويعلنون أنها ماتت

وظنت الأرملة أن الحظ عاد إلى الابتسام ؛ ولكن سرعان ما أخفق أملها لما أمرت ابن تلك الخادم بأن يترك خدمتها فتنكر لها وهددها بإظهار الوصية .

ولما رأت أن حالة الذل ستبقى كما هى بل ستزداد لأن خضوعها لهذا الرجل سيكون أشد إيلاماً لنفسها من خضوعها لأمه ـ لما رأت ذلك ملكها اليأس وذهبت إلى إدارة البوليس . ولكن جهلها بالقانون جعل رجل البوليس يضحك منها لأن الوصية التى تخشى شرها قد بطل مفعولها بعد وفاة ابن زوجها عن غير وارث وأصبحت هى من تاريخ الوفاة مالكة للتركة .

كانت إذن فى الأعوام الثلاثة الأخيرة تقبل الذل خشية من ظهور وصية تجعلها هى المنفردة بالمال .

عبد اللطيف النشار